ANNALES ISLAMOLOGIQUES

en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne

AnIsl 42 (2008), p. 1-24 ar.

ʿABD AL-RAḤMN (Muḥammad NAṢR)

Al-ḥayāt al-iqtiṣādiyya fī-l-Hind fī ʿaṣr Banī Taġlaq (721-816 H

محمد نصر عبد الرحمن

الحياة الاقتصادية فى الهند فى عصر بنى تغلق (٧٢١-٨١٦هـ / ١٣٢١-١٤١٤م)

يعد عصر سلاطين دلهى (٦٠٢-٩٣٢هـ / ١٢١٠-١٥٢٦م) بوجه عام[١]، وعصر بنى تغلق (٧٢١ - ٨١٦هـ/ ١٣٢١ - ١٤١٤م) بوجه خاص من أهم وأخصب فترات تاريخ الهند خلال العصور الوسطى. فخلال تلك الفترة شهدت الهند تطورات عديدة على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية؛ تلك التطورات التى شكلت منعطفا بارزاً فى تاريخ الهند خلال تلك الحقبة. ومن نافلة القول أن هذه الأهمية دفعت العديد من الباحثين إلى إفراد العديد من الدراسات المستقلة عن بنى تغلق، لكن جُل هذه الدراسات وجهت اهتمامها الأساسى نحو دراسة التاريخ السياسى لهذه الحقبة[٢]، بينما اتجهت دراسات قليلة نحو الحياة الاجتماعية والثقافية[٣]. أما الأوضاع الاقتصادية لتلك الحقبة فلم يكن لها عند الدارسين نصيب كبير، برغم أهميتها فى استكمال الصورة التاريخية لهذه الحقبة.

ولهذا اتجه الباحث إلى دراسة الحياة الاقتصادية فى عصر بنى تغلق لاستكمال هذه الصورة وبيان التأثير المتبادل بين الأوضاع الاقتصادية والأوضاع السياسية والاجتماعية، وتعول الدراسة على رصد النشاط الاقتصادى متمثلا فى أشكال ملكية الأرض وطبيعة الإنتاج الزراعى، وعناصر الإنتاج الصناعى، ثم التجارة بشقيها الداخلى والخارجى، إلى جانب النظام المالى.

ولعل من المفيد فى البداية أن نعطى لمحة مختصرة عن التاريخ السياسى لأسرة بنى تغلق حتى تكون الصورة واضحة المعالم. كانت بداية حكم آل تغلق للهند عام ٧٢٠هـ / ١٣٢١م حين ارتقى عرش دلهى غياث الدين تغلق

١. للمزيد من التفاصيل عن عصر سلاطين دلهى انظر: Majumdar, *The Delhi Sultanate*; Jackson, *The Delhi Sultanate, A Political and Military History*; Syed, *History of the Delhi Sultanate*.

٢. انظر على سبيل المثال: Haig, « Five Questions in the History of the Tughluq Dynasty of Delhi », p. 365-372; Basu, « The House of Tughlaq », p. 1-33; Mahdi, *Tughluq Dynasty*.

٣. انظر على سبيل المثال: محمود عرفة، النظم السياسية والاجتماعية بالهند فى عهد بنى تغلق؛ Hussain, *The Social Life and Institutions*, p. 297-305; Jauhri, « Learning and Literature », p. 241-246.

(٧٢٠–٧٢٥هـ / ١٣٢٠–١٣٢٥م). وكان غياث الدين جندياً بسيطاً لدى أحد سلاطين أسرة الخلجيين[٤] ويدعى علاء الدين الخلجى واستطاع أن يرتقى لمرتبة القيادة بعد جهوده فى قتال المغول على حدود الهند الغربية وما حققه من انتصارات فى هذا الميدان. وكانت الأمور قد اضطربت فى الهند فى نهاية عصر هذه الأسرة بعد مقتل آخر سلاطينها قطب الدين مبارك شاه على يد قائده نصير الدين خسرو عام ٧٢٠هـ / ١٣٢١م، واعتلاء هذا الأخير لعرش السلطنة. وكان خسرو من أصل هندوكى فحاول إحياء التقاليد الهندوكية وأبدى استهتاره بالإسلام ومشاعر المسلمين.

وقد أثار ذلك مشاعر المسلمين فى السلطنة فاستنجدوا بالقائد غياث الدين الذى سرعان ما لبى ندائهم وتحرك صوب العاصمة دلهى بعد أن انضم إليه بعض الأمراء المسلمين ونجح فى أن يلحق الهزيمة بخسرو. وبعد موت الأخير صارت الفرصة سانحة أمام تغلق لكى يعتلى عرش سلطنة دلهى إذ لم يكن هناك وريث للعرش من أسرة الخلجيين، وبالفعل اهتبل تغلق الفرصة وتولى عرش السلطنة، وبذلك بدأ حكم أسرة آل تغلق. وقد حكم غياث الدين قرابة خمس سنوات قبل أن يخلفه فى الحكم ابنه محمد[٥].

وخلال عهد محمد بن تغلق[٦] (٧٢٥–٧٥٢هـ / ١٣٢٥–١٣٥١م) وصلت سلطنة دلهى لأقصى اتساع لها، فقد ضم ٢٣ إقليم من أكبر وأغنى أقاليم الهند[٧]. وبوصف أحد المؤرخين المعاصرين[٨] له فإن سلطانه اتسع ليشمل عدداً كبيراً من المقاطعات لم تتوافر لأى سلطان من قبله فى تاريخ الهند.

وفى سنة (٧٥٢هـ / ١٣٥١م) توفى محمد تغلق أثناء إحدى حملاته على بلاد السند ولم يكن له ولد فعهد بالملك من بعده إلى ابن عمه فيروز تغلق وبعد جلوس فيروز شاه[٩] على عرش دلهى خرج محاولاً استعادة بعض الأقاليم التى استقلت عن السلطنة وكاد يستولى على إمارة البنغال بعد أن حاصرها كثيرًا ثم تركها، وفى سنة (٧٦٠هـ / ١٣٥٩م) خرج فيروز شاه ثانية لاسترداد البنغال وحاصرها من جديد ولكن أمير البنغال أرسل إليه بالهدايا الكثيرة مشفوعة بتوسلاته التى رق لها قلب السلطان فرجع عنها للمرة الثانية. ويقول المؤرخون إن فيروز شاه كان له اتجاه خاص نحو المشاريع العمرانية، أنشأ مدينة جديدة قرب دلهى سنة (٧٥٥هـ / ١٣٥٤م) وسماها فيروز آباد.

وفى سنة (٧٩٠هـ / ١٣٨٨م) توفى فيروز شاه وكان قد عهد بالملك إلى حفيده غياث الدين ابن فتح خان ولكنه انصرف عن شؤون الدولة إلى متعه وملاهيه، وعامل الأمراء وكبراء الدولة معاملة سيئة فثاروا عليه وقتلوه، ووقع بعد

٤. الخلجيون (٦٨٩–٧٢١هـ / ١٢٩٠–١٣٢١م): ينتسب هؤلاء إلى موطنهم الأصلى فى منطقة خلج بالقرب من غزنة، وكانت بداية ظهورهم فى عصر الدولة الغورية، ثم استطاع زعيمهم جلال الدين فيروز شاه اعتلاء عرش سلطنة دلهى عام ٦٨٩هـ / ١٣٩٠م. وللمزيد من التفاصيل عن هذه الأسرة وهذه الأحداث انظر: فرشتة، تاريخ فرشتة، ص٨٨ وما بعدها؛ الساداتى، تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم، ج١، ص١٣٢–١٤٨؛
Prasad, « The Rise and Growth of Khilji Imperialism », p. 147-178; Lal, *History of the Khaljis, A.D. 1290-1320*.

٥. عن فترة حكم غياث الدين انظر: ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٤٣٦–٤٤١؛ برنى، تاريخى فيروز شاهى، ص٤٢٣–٤٥٢؛
Banerji, « Ghiyasuddin Tughluq Shah », p. 45-54; Jauhri, *Ghyathu'd-din Tughluq*, p. 62-66; Syed, *History of Delhi Sultanate*, p. 101-107.

٦. عن فترة حكم محمد بن تغلق انظر:
Chaghati, « Muhamed bin Tughluq Shah », p. 58-61; Mahdi, *The Rise and Fall of Muhamed ibn Tughluq*; Jackson, *The Delhi Sultanate*, p. 252.

٧. العمرى، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، ج٣، ص٣٨.

٨. برنى، تاريخى فيروز شاهى، ص٤٦٨.

٩. عن فترة حكم فيروز شاه انظر:
Basu, « Firuz Shah Tughluq as a Ruler », p. 386-393; Banerjee, *History of Fairuz Shah Tughluq*.

ذلك خلاف وصراع على الحكم بين محمد تغلق الثانى وابن عمه أبى بكر. وانتهى الصراع فى سنة (٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م) بجلوس محمد تغلق الثانى على العرش، وبعد جلوسه بدأ يطارد ابن عمه أبى بكر والأمراء الآخرين الثائرين عليه[١٠].

لكن محمد تغلق الثانى لم يعمر كثيرا فى الحكم إذ سرعان ما قضى نحبه عام (٧٩٥هـ-١٣٩٢م) وارتقى العرش من بعده ابنه مايون شاه ولكنه توفى بعد أيام قليلة فخلفه أخوه ناصر الدين محمود تغلق. وخلال عهد الأخير تنافس أمراء ورجال الدولة فيما بينهم على السلطة ومظاهر النفوذ وأدى ذلك إلى استقلال الكثير من الإمارات والحصون عن الدولة. ثم سرعان ما قدر لهذه الدولة أن تشهد نهايتها على يد المغول وإن لم يتم الأمر سريعاً ففى سنة (٧٩٩هـ/ ١٣٩٧م) زحف حفيد زعيم المغول تيمورلنك على الهند وتمكن من هزيمة السلطان ناصر الدين محمود تغلق. لكن الأخير واصل التصدى للمغول فى أنحاء السلطنة طيلة عقد ونصف تقريبا، ولكن ما إن وافته المنية عام ٨١٤هـ/ ١٤١٢م حتى أصبحت السلطنة على وشك السقوط لعدم وجود وريث قوى يمكنه تكملة مسيرة التصدى للمغول، وسرعان ما استولى هؤلاء على سلطنة دلهي وبذلك سقطت دولة آل تغلق فى الهند وبدأ العصر المغولى عام ٨١٦هـ/ ١٤١٤م[١١].

أما عن الحياة الاقتصادية - وهى موضوع بحثنا - فسنتناولها فيما يلى.

الزراعة والإنتاج الزراعى

لاشك أن الزراعة، خاصة فى مجتمعات العصور الوسطى، كانت تعد عصب الحياة الاقتصادية؛ باعتبارها من أقدم الأنشطة التى مارسها الإنسان لتوفير أبسط احتياجاته اليومية. وتحليل مظاهر النشاط الزراعى فى الهند خلال فترة بنى تغلق، تدفعنا لدراسة طرفى العملية الزراعية؛ وهما الإنسان والأرض والعلاقة بينهما سواء فى وضعية الأرض وأشكال الملكية، وعلاقات الإنتاج. أو فى طبيعة الإنتاج الزراعى والعوامل التى أثرت فيه.

أشكال ملكية الأرض

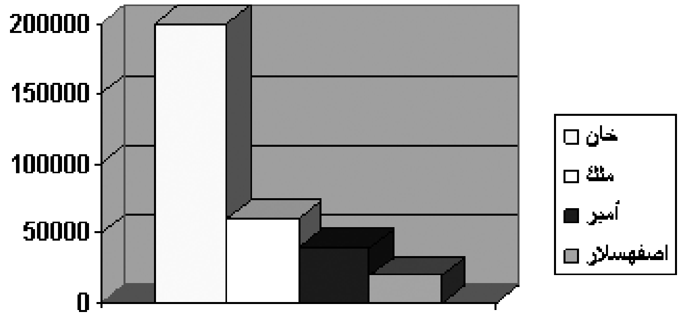
تعددت أشكال ملكية الأرض فى الهند خلال عصر بنى تغلق؛ فقد كانت هناك بعض الأراضى الخراجية لكنها كانت محدودة[١٢]. أما غالبية الأراضى فكانت خاضعة للنظام الإقطاعى، وكان الإقطاع العسكرى هو النمط السائد من الإقطاع فى عصر سلاطين دلهى بوجه عام[١٣]، وعصر بنى تغلق بوجه خاص. يدل على ذلك أن أكثر الاقطاعات كانت للحكام وكبار قادة العسكر (أرباب السيوف) فى السلطنة[١٤]. ولم يختص بنو تغلق وحدهم بتطبيق هذا النظام فيما يخص وضعية

١٠. للمزيد من التفاصيل عن أحداث تلك الفترة انظر: Banerjee, « A Note on the Succession of Firuz Shah », p. 47-52.
١١. الساداتى، تاريخ المسلمين فى الهند، ص١٦٩ -١٨٠.
١٢. عصام عبد الرؤوف، بلاد الهند فى العصر الإسلامى، ص٢١٣
١٣. محمود إسماعيل، سوسيولوچيا الفكر الإسلامى، ج٣، ص٤٤.
١٤. العمرى، مسالك الأبصار، ص٤٤.

الأرض فى العالم الإسلامى، بل كان هذا النظام هو السائد فى معظم مناطق العالم الإسلامى خاصة فى دولة المماليك فى مصر والشام والحجاز[١٥].

وبرغم ذلك فقد اختلف نظام الإقطاع فى الهند فى عهد بنى تغلق عن نظام الإقطاع العسكرى المملوكى، فهناك بعض الاختلافات الأساسية بين النظامين، والتى أشار إليها كلا من العمرى والقلقشندى[١٦] صراحة حين ذكرا أن النظام كان مختلفا فى الهند عنه فى مصر والشام، هذا الاختلاف فيما يخص تابعى السيد الاقطاعى، ففى النظام المملوكى يقوم الإقطاعيون بمنح جنودهم اقطاعات من الأرض لكى يتعيشوا منها نظير ارتباطهم بسيدهم الاقطاعى وتقديم الخدمات له. أما فى الهند فإن تابعى السيد الاقطاعى من الجند لم يكن يحصلون من السيد الاقطاعى على أى مقابل، بل كانوا يحصلون فى مقابل ولائهم لسيدهم على رواتب من السلطان مباشرة، وكان راتب الجندى يتراوح ما بين (١٠٠٠– ١٠٠٠٠ تنكة[١٧]) حسب رتبته[١٨].

وقد اتخذ هذا النظام خلال عهد محمد بن تغلق الشكل الهرمى فكان على قمته الخانات، يليهم الملوك، ثم الأمراء، ثم الاصفهسلارية[١٩]. وكان لكل خان إقطاع من الأرض ريعه السنوى (٢٠٠ ألف تنكة)، ولكل ملك مابين (٥٠–٦٠ ألف تنكة) والأمير مابين (٣٠–٤٠ ألف تنكة)، والاصفهسلار[٢٠] (٢٠ ألف تنكة). وكان للخان من الأتباع ١٠ آلاف فارس، والملك ١٠٠٠ فارس، والأمير ١٠٠ فارس، والاصفهسلار أقل من ذلك[٢١].



شكل ١. رسم تخطيطى يوضح نسب ريع الاقطاع مقدراً بالتنكة.

١٥. عن نظام الإقطاع العسكرى المملوكى انظر: إبراهيم على طرخان، النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط، ص٥٩ وما بعدها؛ آشتور، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق الأوسط، ص٣٦٩–٤٢٥.
١٦. العمرى، مسالك الأبصار، ص٤٤؛ القلقشندى، صبح الأعشى، ج٥، ص٩٢.
١٧. التنكة إحدى العملات الهندية وللمزيد عنها انظر النظام المالى فى هذه الدراسة.
١٨. العمرى، مسالك الأبصار، ص٤٤–٤٥.
١٩. الاصفهسلار: هو قائد الجيش، انظر، محمد قنديل البقلى، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص٣٢.
٢٠. القلقشندى، صبح الأعشى، ص٩٤.
٢١. العمرى، مسالك الأبصار، ص٤٤.

وإلى جانب الإقطاع العسكرى؛ منح السلاطين كبار الموظفين والفقهاء (أرباب الأقلام) إقطاعات بدلاً من الرواتب[٢٢]. وكان على رأسهم نائب السلطان ويسمى (امريت)، وكان له إقطاع ضخم فى حجم إقليم كبير مثل العراق، يليه الوزير وله إقطاع كبير لإقليم بحجم العراق أيضاً. وكان للوزير أربعة نواب يسمى كل واحد منهم (شق) وله إقطاع ريعه مابين (٢٠ - ٤٠ ألف تنكة). هذا بجانب كتاب سر أربعة (يسمى الواحد فيهم دبيران) لكل واحد مدينة كبيرة، وكان كبار الكتاب يصل إقطاع الواحد منهم إلى ٥٠ قرية، أما الصغار فاقطاعاتهم صغيرة ريعها فى حدود (١٠ آلاف تنكة)[٢٣]. وكان صاحب وظيفة أمير داد (مهمته الجلوس بمجلس القاضى فمن كان له حق على أمير أو كبير أحضره بين يديه) فكان إقطاعه فى حدود (٥٠ ألف تنكة)، ومحاسب الدواوين (٤٠ ألف تنكة)، صاحب وظيفة رسول دار (حاجب الإرسال) فى حدود (٢٤ ألف تنكة)[٢٤].

أما رجال الدين من الفقهاء والقضاة فكان لهم أيضاً نصيب من الإقطاعات فقد كان لقاضى القضاة الملقب بصدرجهان إقطاع ريعه (٦٠ ألف تنكة) وشيخ الشيوخ مثله[٢٥]، والقاضى (١٢ ألف تنكة)[٢٦]، والمحتسب إقطاع ريعه (٨ آلاف تنكة)[٢٧]. كما كانت هناك اقطاعات لبعض الوظائف الخاصة مثل شحنة الفيل الذى كان إقطاعه إقليم كبير مثل العراق، ومرجع هذا لأهمية الفيلة للسلطان الذى كان الوحيد الذى يقتنيها وكان له ٣٠٠٠ فيل[٢٨].

هذا بجانب الهبات الإقطاعية الذى كان السلطان يمنحها لندمائه من رجال الحاشية وكان يتراوح ريعها مابين (٢٠-٤٠ ألف تنكة) على حسب علاقتهم ومدى قربهم من السلطان[٢٩]. وكان أحيانا يمتد الإقطاع ليشمل مدينة كاملة، كما حدث عندما منح السلطان أحد كبار التجار مدينة (كنبايه) إقطاعاً له[٣٠]. كما اقطع الأمير غياث الدين ابن الخليفة العباسى المستنصر بالله مدينة (سيرى) إقطاعاً بجانب مائة قرية عندما وفد عليه من بلاد ما وراء النهر[٣١]. وأقطع أحد الشيوخ مدينة (ظِهار) لأنه أهداه من بطيخ حلو يزرعه لا يزرع مثيله فى الهند[٣٢].

أما عن التزامات أصحاب الاقطاعات أو المقابل الذى كانوا يؤدونه للسلطان فقد كانت مشابهة لباقى الأنظمة الإقطاعية الأخرى؛ فقد كان الأمراء يخرجون معه فى حروبه[٣٣]. كما كان كل اقطاعى يأتى إلى مجلس السلطان فى عيدى الفطر والأضحى بدنانير ذهبية فى صرة مكتوب عليها اسمه فيلقيها فى طست ذهب موضوع أمام السلطان، ثم يمنحها السلطان لمن يريد[٣٤]. بجانب ذلك كان أصحاب الاقطاعات يساهمون فى إنشاء بعض مشاريع الرى العامة فى مناطق إقطاعهم مثل البحيرات الصناعية والخزانات، ولدينا بعض النقوش لنص عثر عليه فى إحدى مقاطعات راجاستان Rajasthan يخبرنا أن الإقطاعى مالك بن فيروز بن محمد قام بإنشاء بحيرة صناعية (حوض) هناك وسماه بحر فيروز[٣٥]. وباستثناء ذلك لم تحدثنا المصادر عن أية التزامات أخرى يؤدونها للسلطان فيما عدا الضرائب العامة المقررة على الأراضى.

٢٢. محمود إسماعيل، سوسيولوچيا الفكر الإسلامى، ص٤٥.
٢٣. العمرى، مسالك الأبصار، ص٥٦.
٢٤. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٥١١-٥١٢.
٢٥. القلقشندى، صبح الأعشى، ص٩٤.
٢٦. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٥٠٧.
٢٧. القلقشندى، صبح الأعشى، ص٩٤.
٢٨. العمرى، مسالك الأبصار، ص٥٦؛ القلقشندى، صبح الأعشى، ص٩٤.
٢٩. العمرى، مسالك الأبصار، ص٤٧.
٣٠. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٤٥٢.
٣١. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٤٥٩.
٣٢. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٥٤٦.
٣٣. العمرى، مسالك الأبصار، ص٤٩.
٣٤. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٤٤٨.
٣٥. انظر: Siddiqui, « Water Works », p. 58

وتبدو هناك إشارة وحيدة عن وجود نظام القبالة أو الالتزام فيما ذكره ابن بطوطة[٣٦] عن التزام أحد رجال الهند مدينة دولت آباد مقابل (١٧ كرور) وعجزه عن الوفاء بهذا الالتزام. وباستثناء هذه الإشارة لا يوجد ما يشير إلى انتشار هذا النظام فى الهند خلال تلك الفترة.

وخلال عهد فيروز اختلفت أنواع ملكية الأراضى نوعاً ما عما كان موجودا زمن سلفه؛ فقد تم تقسيم كل أراضى السلطنة إلى أخماس، وكل خمس تم تقسيمه إلى مقاطعات، وجرى توزيع هذه المقاطعات على رجال الجيش بشكل يقارب النظام الاقطاعى الأوربى. وكان جنود الجيش يحصلون على اقطاعات من الأرض مقابل خدماتهم، أما الامتيازات الأخرى غير القانونية فكانوا يحصلون عليها من الخزانة الملكية. أما الذين لم يحصلوا على اقطاعات ولا رواتب فكانوا يحصلون على مخصصات من الخراج. وإذا علمنا أن الجيش كان يتكون من ٨٠-٩٠ ألف فارس بجانب تابعى بارونات الإقطاع والنبلاء الذين كان عددهم أقل بقليل من ٢٠٠ ألف يمكننا أن ندرك مدى ضخامة حجم الإقطاع خلال تلك الفترة[٣٧].

وكانت الاقطاعات تمنح تحديدا لنواب الملك، ونجد مناطق كبيرة وحتى ولايات بأكملها تخصص كإقطاع لكبار النبلاء. ومن ذلك أن السلطان منح منطقتى كارا Kara ودلمو Dalmau لأحد كبار النبلاء مع لقب ملك الشرق. كما منحت مدينتى ظفارآباد Zafarabad وجانبور Jaunpur لأمير آخر. وجرى نفس الأمر على مناطق كجرات وبحار Bihar[٣٨].

أما عن الالتزامات الإقطاعية فقد اختلفت أيضاً خلال عهد فيروز شاه وارتبط معظمها بالعبيد الذين ازدهرت تجارتهم خلال هذا العهد؛ فعندما كان الإقطاعيون – ومعظمهم من كبار موظفى الدولة – يقومون بزيارتهم السنوية للعاصمة – كنوع من الحساب – كانوا يحضرون معهم الهدايا للسلطان من الفيلة والجمال والبغال والأوانى الذهبية والفضية، بجانب من ١٠ إلى ١٠٠ عبد لكل فرد حسب الإقطاع وتخصم من ضرائبهم أو إيجاراتهم[٣٩]. وعندما قام السلطان فيروز شاه بمنح ولاية كجرات كإقطاع لأحد النبلاء، كان ذلك فى مقابل أن يقدم سنويا للسلطان ٤٠٠ من العبيد الأحباش المختارين[٤٠].

على الجانب الآخر وفيما يخص أحوال الفلاحين وعلاقتهم بالسيد الإقطاعى فى ظل هذا النظام؛ فقد كان من المتوقع أن هؤلاء النبلاء يديرون الإقطاعات ويشرفون على شؤونها الداخلية، لكن الأمر كان مختلفاً عن نمط الإقطاع الغربى فيما يخص حقوق الإقطاعى على فلاحى إقطاعيته فقد ألغى سلاطين بنى تغلق هذه الحقوق[٤١]. خاصة فى ظل الإقطاع العسكرى؛ فكما ذكرنا أن السلطان قام بالتخفيف عن كاهل هؤلاء أية أعباء أو التزامات مالية تجاه تابعيهم من الفرسان والجنود وربطها بخزانة السلطنة.

٣٦. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٥٤٨-٥٤٩.
٣٧. شمسى سراج عفيف، تاريخى فيروز شاهى، ص٣٠٣.
٣٨. عن هذه المناطق انظر الخريطة الخاصة بالهند فى عصر بنى تغلق الملحقة بالبحث.
٣٩. انظر: Lane Pool, *Mediaeval India*, p. 145
٤٠. انظر: Imamuddin, « The Maritime Trade of Sind », p. 89.
٤١. انظر: Habib, « The Peasant in Indian History », p. 54.

وقد تحسنت أحوال الفلاحين خلال عصر بنى تغلق مقارنة بالفترات التى سبقته؛ فخلال عصر الخلجيين عانى الفلاحون من قسوة الضرائب، حتى أن علاء الدين الخلجى قام بجمعها من شيوخ القرى وأصر على جمعها نقداً مما جعل الفلاحين يضطرون لبيع محاصيلهم للتجار بأسعار بخسة لكى يدفعوا الضرائب نقداً [٤٢]. فلما جاء غياث الدين تغلق وجد أن هذا الأمر فيه ظلم لشيوخ القرى والفلاحين، لذلك أعفى شيوخ القرى من الضرائب على أراضيهم مقابل ما يؤدونه من خدمات للسلطنة[٤٣].

لكن الأمور بالنسبة للفلاحين لم تسير بصورة طيبة كل الوقت، فخلال عهد محمد بن تغلق ومع ارتفاع نفقاته قام بزيادة الضرائب على الفلاحين فى بعض المناطق الخصبة، وأدت قسوة هذه الضرائب إلى تحول عدد كبير من الفلاحين إلى متسولين. أما الأغنياء من شيوخ القرى فقد تحولوا إلى ثوار، وأجدبت الأراضى. وامتد هذا التأثير إلى كثير من الولايات؛ فأصيب الفلاحون بالذعر، وفقدوا الثقة فى الحكومة، وهجروا أراضيهم، وحرقوا حطبهم، وأطلقوا ماشيتهم وأخذوها إلى الغابات[٤٤].

وقد زادت وطأة الأمر بعد أن حدثت مجاعة فى المنطقة ولم تخفف الدولة من مطالبها حتى مع وقوع المجاعة، بل أصر الموظفون على جمع الضرائب المقررة وأيضا لم تتخذ الدولة أية خطوات للتخفيف عن الفلاحين فى ظل هذه الظروف السيئة. وحتى إجراءات السلطان التخفيفية مثل المعونات التى كانت تقدم للفلاحين كانت ضعيفة ومتأخرة، وعانى الفلاحون كثيرا مما اضطرهم فى النهاية لهجر أراضيهم. وفى غضب عظيم قام السلطان ببعض الخطوات الانتقامية لإرجاعهم لأراضيهم[٤٥].

ثم تحسنت الأمور فى عهد فيروز شاه بعد أن أعفى الكثير من المزارعين من ديونهم، وتمت السيطرة على مساوئ نظام جمع الضرائب بيد قوية، كما أدت التسهيلات التى قدمتها الحكومة للمزارعين إلى تحسن أوضاع الأراضى وزيادة غلتها، وظهر ذلك فى ارتفاع قيمة الضرائب التى تم جمعها برغم إلغاء الكثير منها. حيث تم تقدير ضرائب منطقة دواب وحدها فقط بحوالى ثمانين لك، ومدينة دلهى بحوالى (٦ كرور و٨٥ لك)[٤٦]. وكتب أحد الكتاب المعاصرين له [٤٧] يذكر أنه كانت توجد بجوار منطقة دلهى وحدها ألف ومائتى قرية كانت تدفع سنويا (١٨٠ ألف تنكة).

الإنتاج الزراعى

ازدهرت الزراعة بصورة كبيرة خلال تلك الفترة، ساعد على ذلك توفر المقومات التى هيأت المجال لهذا الازدهار مثل التربة الخصبة التى انتشرت حول ضفاف أنهار الهند المتعددة[٤٨]. وكذلك مصادر المياه متمثلة فى الأنهار، بجانب الأمطار

٤٢. برنى، تاريخى فيروز شاهى، ص٤٠٣-٤٠٧.
٤٣. برنى، تاريخى فيروز شاهى، ص٤٠٣؛
Syed, *History of Delhi Sultanate*, p. 107.
٤٤. برنى، تاريخى فيروز شاهى، ص٤٠٣؛
Jackson, *The Delhi Sultanate*, p. 265-266.
٤٥. انظر:
Majumdar, *An Advanced History of India*, p. 320; Prasad, *History of Mediaeval India*, p. 273.
٤٦. لمعرفة قيمة هذه العملات راجع النظام المالى بالبحث.
٤٧. شمسى سراج عفيف، تاريخى فيروز شاهى، ص١٢٨.
٤٨. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٤٠٨.

الموسمية الغزيرة التى كانت تسقط أربعة أشهر فى السنة، واعتمد عليها الهنود فى رى الأرض فى نهاية فصل الصيف[٤٩]. هذا بجانب المناخ المعتدل، الذى لم يكن مفرطاً فى الحر أو البرودة مما أدى لتنوع الإنتاج الزراعى وغزارته[٥٠].

ولكى تتم إدارة شؤون الأراضى الزراعية بكل كفاءة تم تقسيمها إلى أصداء، وكل صدى يضم مائة قرية. وكان لكل صدى موظفان يتوليان إدارته الأول يسمى جوطرى وهو بمثابة شيخ بلد أو عمدة، ومتصرف مختص بجمع الضرائب على الأرض عقب حصاد المحاصيل يتم مراقبته بشدة حتى لا يسئ استخدام وظيفته أو يظلم المزارعين[٥١].

وكانت الزراعة خلال هذه الفترة موسمية تتم مرتين فى السنة، فى فصلى الخريف والربيع، فعند سقوط المطر فى آخر الصيف يزرعون الزرع الخريفى ويحصدونه بعد شهرين، وبعد الحصاد يزرعون الحبوب الربيعية. ومن الحبوب التى تزرع خلال موسم الخريف (الكُذرو، الشاماخ، الماش، المُنج، المُوت، اللوبيا، القال). ومن المحاصيل الربيعية (القمح والشعير والحمص والعدس والسمسم وقصب السكر)[٥٢]. بجانب ذلك كانت هناك محاصيل تزرع ثلاث مرات فى السنة مثل محصول الأرز الذى كان يعد المحصول الأساسى فى البلاد[٥٣]. كما ازدهرت زراعات الفواكه كالعنب والرمان والنارنج، بجانب التوابل كالفلفل والقرنفل والقرفة والكافور والدارصينى وغيرها[٥٤].

وبجانب الأراضى الزراعية اهتم السلاطين بالحدائق التى ازدهرت بشكل كبير فى الهند[٥٥]، فقد اهتم فيروز شاه بشكل كبير بالحدائق وقام بزراعة ألف ومائتى حديقة بالقرب من دلهى وكثير فى أماكن غيرها وكانت هذه الحدائق تنتج سبعة أنواع مختلفة من العنب الأبيض والأسود كانت تدخل دخلا سنويا للخزانة[٥٦].

مشروعات الرى

وساعد على تطور الزراعة وازدهارها مشاريع الرى من البحيرات الصناعية (الأحواض) والقنوات والسدود التى قام سلاطين بين تغلق بإنشائها فى مناطق الهند المختلفة لتخزين مياه الأمطار واستخدامها فى فصول الجفاف؛ فقد قام السلطان محمد بن تغلق بإنشاء بحيرة ضخمة بالقرب من مدينة عدلاباد Adilabad[٥٧]، بجانب بحيرتين أخريين هما بحيرة تغلق شاه، وبحيرة قتلغ خان (معلم السلطان محمد بن تغلق). أما فيروز شاه فقد كان أكثر نشاطاً فى إنشاء هذه البحيرات ومنها: بحيرة شاه زاده فتح خان (الابن الأكبر لفيروز شاه)، وبحيرة شاه زاده مبارك (ابن فيروز شاه)[٥٨]، بجانب بحيرة ضخمة أقامها عند حصن حصار فيروزا Hisar Firuza[٥٩]. ولم تكن مهمة هذه البحيرات أو الخزانات حفظ الماء فقط، بل كانت تستخدم فى الزراعة أيضاً؛ فعند جفاف أطرافها كان يتم زراعتها ببعض المزروعات مثل قصب السكر والخيار والقثاء والبطيخ الأخضر والأصفر[٦٠].

٤٩. القلقشندى، صبح الأعشى، ص٦٨.
٥٠. العمرى، مسالك الأبصار، ص٤١.
٥١. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٥٠٧.
٥٢. العمرى، مسالك الأبصار، ص٤١.
٥٣. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٤٠٨–٤٠٩.
٥٤. العمرى، مسالك الأبصار، ص٣٥.
٥٥. العمرى، مسالك الأبصار، ص٤٠.
٥٦. شمسى سراج عفيف، تاريخى فيروز شاهى، ص١٢٨.
٥٧. انظر: Siddiqui, « Water Works », p. 57-58
٥٨. مجهول، سيرتى فيروز شاهى، ص٧٨–١٠٧.
٥٩. شمسى سراج عفيف، تاريخى فيروز شاهى، ص١٢٦.
٦٠. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٤١٨.

ولم يكتف فيروز شاه بهذه المشروعات، بل فكر فى توفير مياه الرى للمناطق التى تقل بها المياه عن طريق الخزانات وقنوات الرى، حيث أنشأ ٣٠ خزاناً لتعزيز الرى فى تلك المناطق، كما قام بإنشاء بعض السدود لهذه المهمة أيضاً [٦١]. وقد أشار مؤرخ معاصر له لأسماء بعض هذه السدود مثل سد شكر خان ShukrKhan، وسد وزيراباد Wazirabad، وغيرها من السدود الأخرى[٦٢].

ومن هذه المشاريع أيضاً قناتين أمر بشقهما فيروز شاه؛ واحدة تمتد من جمنا Jumna والأخرى من ستليج Sutlej وقد سميت الأولى رحواب Rahwab والأخرى اولجخانى Ulugkhani. وكانت القناتان تجريان بالقرب من منطقة كرنال Karnal وبعد أن تجريان لمسافة ١٦٠ ميل تلتقيان وتشتركان فى مجرى واحد فى منطقة حصار فيروزا[٦٣]. وقد ساهمت هذه القنوات فى تحسين الرى، وتوفير المياه بسهولة للأراضى الزراعية البعيدة عن مجارى الأنهار، وكانت إدارة القنوات تخضع لرقابة مهندسين أكفاء، كانوا يفحصون القنوات خلال موسم المطر والفيضان[٦٤].

الثروة الحيوانية

كان من الطبيعى مع التنوع الكبير للبيئة الهندية ومساحتها الشاسعة أن تتنوع الثروة الحيوانية بها ويزداد حجمها بصورة كبيرة[٦٥]، خاصة فى الحيوانات التى كانت تستخدم للاستهلاك البشرى سواء للطعام أو الصناعة، حيث ذكرت المصادر[٦٦] أن بها «ما لا يحصى من الدواب السائمة من الجواميس والأبقار والأغنام والماعز. أما الجمال فكانت قليلة ويبدو أن استخدامها كان قاصرا على التنقل فقط، خاصة للسلطان وكبار رجال حاشيته من الخانات والأمراء والوزراء»[٦٧]. وقد وصف لنا ابن بطوطة[٦٨] طريقة تسمين الماشية خلال تلك الفترة؛ حيث كان يؤتى بحبوب الموت والحمص وتجرش وتبل بالماء ثم تطعم للماشية، كما كان يتم سقى الماشية السمن لمدة عشرة أيام فى كل يوم بمقدار ثلاثة أرطال أو أربعة، وبعدها تطعم أوراق نبات الماش.

على الجانب الآخر كانت هناك بعض الحيوانات التى تستخدم للطعام وأمور أخرى كالخيل؛ فبجانب استخدامها المعتاد لركوب الفرسان سواء للحروب أو المواكب والتنقل، كان يتم استخدام لحومها للطعام أيضاً، حيث كانت تسمن وتذبح وتقدم من ضمن مائدة السلطان[٦٩]. ورغم كثرة الخيل بالهند إلا أنها كان يتم استيرادها بأعداد كبيرة لكثرة ما كان السلطان محمد بن تغلق يقوم بتوزيعه منها على حاشيته؛ فقد كان يفرق فى كل سنة عشرة آلاف فرس عربى من الخيل العراب، أما الخيل البراذين فكان يوزع منها بلا حساب[٧٠]. ولعل السبب الأساسى لكثرة استيراد الخيول من خارج الهند أن البيئة الهندية عموماً لم تكن ملائمة لتربية الخيل إذ يذكر العمرى[٧١] أن «الخيل إن طالت الإقامة بها بالهند انحلت وأكثرها مما لا يحمد فعله لذا يتم جلب الكثير من الخارج».

٦١. انظر: Siddiqui, « Water Works », p. 58
٦٢. شمسى سراج عفيف، تاريخى فيروز شاهى، ص٣٣٠.
٦٣. شمسى سراج عفيف، تاريخى فيروز شاهى، ص١٢٧.
٦٤. انظر: Lane Pool, *Mediaeval India*, p. 144
٦٥. ماركوبولو، رحلات ماركوبولو، ص٦٢.
٦٦. العمرى، مسالك الأبصار، ص٤٢؛ القلقشندى، صبح الأعشى، ص٨٢.
٦٧. العمرى، مسالك الأبصار، ص٤٢.
٦٨. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٤٠٨.
٦٩. العمرى، مسالك الأبصار، ص٤٧.
٧٠. العمرى، مسالك الأبصار، ص٤٥.
٧١. العمرى، مسالك الأبصار، ص٤٢.

وبجانب الحيوانات الاستهلاكية وجدت حيوانات أخرى متعددة الاستخدام وأشهرها الفيلة، التى كان السلطان محمد بن تغلق يقتنى منها وحده حوالى ثلاثة آلاف فيل. ويبدو أن اقتناء الفيلة كان قاصراً على السلطان وكبار رجال الدولة والأثرياء نظراً للنفقات الباهظة التى كان يتكلفها إطعام الفيلة؛ إذ أن كل فيل كان يحتاج يوميا ٤٠ رطلا من الأرز و٦٠ رطلا من الشعير و ٢٠ رطلا من السمن بجانب نصف حمل من الحشيش[٧٢]. وبجانب هذا اشتهرت الهند بطيور الزينة من الطواويس والببغاوات المتعددة الأنواع والأشكال[٧٣].

الصناعة والإنتاج الصناعى

بجانب النشاط الزراعى وجدت بعض الأنشطة الصناعية المختلفة، والتى اعتمدت على المواد الخام المتوفرة كالحديد والخشب، والمحاصيل الزراعية كالقطن والنيلة. لكن التطور الصناعى خلال تلك الفترة لم يكن كبيراً فقد كانت الصناعات يدوية بدائية فى الغالب، ومعظمها مرتبط بالاستهلاك المحلى، وهذا الأمر كان غالبا على معظم الصناعات فى العالم الإسلامى خلال تلك الحقبة.

وكان من أهم الصناعات فى الهند خلال عصر بنى تغلق صناعة المنسوجات؛ ومنها ما كان يخص الدولة لإنتاج احتياجات القصر السلطانى، حيث كان للسلطان محمد بن تغلق دار طراز يعمل بها أربعة آلاف عامل تقوم بصناعة الأقمشة والخلع من الأقمشة التى كان يتم استيرادها من الصين والعراق والإسكندرية. ولاشك أن هذا العدد الضخم من العمال يمنحنا تصور عن مدى حجم هذه الدار أو المصنع ومدى إنتاجه، خاصة أن السلطان كان يفرق فى كل عام مائتى ألف كسوة؛ مائة فى الربيع ومائة أخرى فى الخريف[٧٤].

كما وجدت بعض المغازل الخاصة بالصناعات القطنية؛ حيث يستخدم القطن من الأشجار الشابة فى المغازل ويصنع منه المنسوجات القطنية، أما الأشجار القديمة فكان يستخدم قطنها فى صنع الألحفة. كما كانت تصنع فى إقليم كجرات النمارق المحلاة بأسلاك الذهب التى تمثل أشكالا للطير والحيوان التى تفوق فى رقتها كل مثيلاتها فى العالم. هذا بجانب أغطية الفراش التى تتميز بالرقة والنعومة ويستخدم فى صناعتها خيوط الذهب والفضة[٧٥].

ويرتبط بتلك الصناعات صناعة النيلة المستخدمة فى عمليات الصباغة وكانت صناعتها بسيطة حيث يحضر نبات النيلة وينقع فى براميل ماء، ويترك حتى يتعطن، ثم تعصر منه عصارته، ثم تترك فى الشمس حتى يتبخر ماؤها وتتحول إلى عجينة، تقطع قطعاً صغيرة، وتستخدم فى عمليات الصباغة[٧٦].

بجانب ذلك وجدت بعض الصناعات الأخرى مثل الصناعات الخشبية وأهمها صناعة السفن التى تركزت فى المناطق الساحلية، وكانت السفن تصنع من خشب الساج وهو من أفضل أنواع الأخشاب لشدة تحمله. ومتى تم إعداده لا ينشق أو يتشقق أو يتقلص أو يتغير شكله[٧٧]. ولم تكن المسامير تستعمل فى صنع السفن الهندية، وإنما كانت تشد أخشابها

٧٢. العمرى، مسالك الأبصار، ص٥٦.
٧٣. ماركوبولو، رحلات ماركوبولو، ص٦٣.
٧٤. العمرى، مسالك الأبصار، ص٤٥.
٧٥. ماركوبولو، رحلات ماركوبولو، ص٦٨.
٧٦. ماركوبولو، رحلات ماركوبولو، ص٦٢.
٧٧. حورانى، العرب والملاحة، ص٢٤٥.

بربطات من الحبال شداً متينا، وكانوا يضعون الشحم فى الثقوب والمنافذ الناتجة من ربطات الحبال[٧٨]. وقد اختلفت الآراء فى سبب عدم استخدام الهنود للمسامير فى صناعة السفن، لكن الرأى الأقرب للصحة هو قدرة السفن المخيطة واستطاعتها التعامل مع أمواج المحيط، حيث تكون أكثر مرونة من مثيلتها المسمارية فيمكنها امتصاص صدمات الأمواج، ولمرونتها تلك واتساع قاعدتها نتيجة استخدام الخيوط والحبال تكون أقل عرضة للكسر عند اصطدامها بالشعاب المرجانية الموجودة فى المحيط الهندى[٧٩]. هذا بالإضافة إلى صناعة الأسرة، وكانت الأسرة الهندية تصنع من أربع قوائم مخروطة يوضع عليها أربعة أعواد ثم تنسج عليها ضفائر من الحرير أو القطن[٨٠].

كما وجدت بعض الصناعات الأخرى مثل دباغة الجلود وتركزت فى إقليم كجرات؛ حيث كانت تدبغ أعداد كبيرة من جلود الماعز والجاموس والثيران والخراتيت وغيرها من الحيوانات[٨١]. كذلك صناعات الأسلحة؛ مثل السيوف والقسى والرماح والزرد والصواغ والزراكش والسراجين[٨٢].

وعلى الجانب الآخر كانت هناك بعض الصناعات الغذائية مثل صناعة مشتقات جوز الهند؛ حيث كان يؤتى بالثمار من شجر النارجيل فيصنع منه الزيت والحليب والعسل، أما عن الزيت فتؤخذ ثمرة الجوز بعد نضجها فتزال قشرتها وتقطع قطع صغيرة، ثم تترك فى الشمس، وبعد أن تذبل يتم طهيها فى قدور، ثم يستخرج منه الزيت. أما طريقة استخراج العسل منه فإن هناك رجال مختصون بذلك يصعدون لشجرة جوز الهند ثم يقطعون الفروع التى تخرج منها الثمار، ويتركون منها جزءا صغيرا ويضعون عليها قدورا صغيرة، ثم يسيل ماء من تلك الفروع فى هذه القدور فيتم جمعها ليلاً، ثم يتم طهى هذا الماء فيصير عسلاً. أما الحليب فيتم إحضار جوزة الهند ويتم إحضار حديده مسننة ويتم عمل فتحة بطول الحديدة فى الثمرة، ثم يتم جرش الثمرة من الداخل حتى لا يبقى فى داخلها شئ، ثم ينقع هذا الجريش فى الماء مع المرت باليد حتى يصير كلون الحليب وطعمه[٨٣].

التجارة والنشاط التجارى

التجارة الداخلية

نشطت التجارة الداخلية بصورة كبيرة خلال عصر بنى تغلق، وكان مركز هذا التجارة مدينة دلهى بوصفها أهم المدن الهندية، وكانت معظم البضائع تتجه فى نهاية مطافها إلى هذه المدينة[٨٤]. وكان أهم هذه البضائع التنبول[٨٥]؛ الذى راجت تجارته لأن السلطان حرم شرب الخمر وتشدد فى معاقبة من يشربها حتى من خاناته الكبار، لذلك لجأ الناس

٧٨. السيد أبى ظفر الندوى، أسطول كجرات، ص٩٥.
٧٩. شوقى عبد القوى عثمان، تجارة المحيط الهندى، ص١٢٤-١٢٥.
٨٠. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٥٠٤.
٨١. ماركوبولو، رحلات ماركوبولو، ص٦٨.
٨٢. العمرى، مسالك الأبصار، ص٤٢؛ القلقشندى، صبح الأعشى، ص٨٣.
٨٣. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٢٦٥.
٨٤. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٥٤٠.
٨٥. التنبول: نوع من الأشجار المتسلقة، لذلك كانت زراعته تشبه زراعة العنب من حيث إقامة الدعائم كى يتسلقها النبات فى نموه. وهو شجر بلا ثمر ولكن يستعمل ورقه. انظر: ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص١٥٩.

للتنبول لأنه «يشبه الخمر فى مفعوله فيبسط الأنفس بسطا عظيما ويورثها سرورا زائدا لكنه مع ذلك يكون مع ثبوت العقل وصفاء الذهن»[٨٦].

بجانب ذلك كانت هناك تجارة الرقيق التى كانت رائجة هى الأخرى لرخص أثمان الجوارى، فالجارية الخادمة كان ثمنها لا يتعدى ٨ تنكات، والخدمة والفراش ١٥ تنكة، والعبد الشاب ٤ دراهم. وكانت هذه الأسعار فى دلهى أما فى غيرها فكان السعر أقل. وبجانب ذلك كانت هناك جوارى أسعارهن مرتفعة ومنهن من يبلغ ثمنها ٢٨ ألف تنكة، لكن كان لها مواصفات خاصة؛ مثل جمالها وحسن خلقها وحفظها للقرآن ورواية الأشعار وإجادة الغناء وضرب العود ولعب الشطرنج وغيرها، وكلما زادت مواهبها زاد سعرها. ورغم وجود الجوارى الترك والقبجاق والروم إلا أن الهنديات كان لهم الأفضلية لجمالهن وأمور أخرى[٨٧].

ولعل مما زاد فى رواج هذه التجارة خاصة فى عهد فيروزشاه، أنه كان واحدا من الملامح الرئيسية لعهده هو النمو غير الطبيعى لنظام العبيد. حيث كان العبيد يرسلون من نواب السلطان على أجزاء الإمبراطورية المتعددة. وكان بعضهم يتلقى تعليما حرا ويتم تخصيصهم لدراسة الدين والأدب والبعض يتلقى تعليما فنياً ويصبح حرفياً. وبسبب عطف السلطان زاد عدد العبيد بصورة هائلة حتى وصل عددهم إلى ١٨٠ ألف عبد. وكان فى قصر السلطان وحده ٤٠ ألف من العبيد. ولإدارة هذا الجيش من العبيد تم تخصيص قسم منفصل وموظفين ولاشك أن هذا كان يشكل عبء على الخزانة[٨٨].

التجارة الخارجية

انتعشت التجارة الخارجية بصورة كبيرة خلال تلك الفترة خاصة مع التشجيع المباشر من السلاطين لها[٨٩]؛ وقد استغل التجار عادة السلطان محمد بن تغلق فى إكرام الغرباء، حيث اعتاد السلطان أن من يقدم عليه بهدية أن يكافئه بأضعاف مضاعفة، فكان التجار يعطون القادم على السلطان قروضاً بآلاف الدنانير ويجهزونه بما سوف يهادى السلطان به، وبعد أن يحصل على مكافأته من السلطان يستردون أموالهم ومعها الأرباح. وقد مر ابن بطوطة بهذا الموقف حين أخذ من التجار الخيل والجمال والمماليك وغيرها من الهدايا ليقدمها للسلطان[٩٠].

وظهر حرص السلاطين على تشجيع التجارة وتنميتها فى إلغاء بعض الضرائب التى تفرض على البضائع الواردة من خارج الهند؛ فقد كان بمدينة ملتان مركز للمكوس يتم فيه تفتيش القوافل التجارية المتجهة لجنوب الهند ويؤخذ الربع مما تحمله، بجانب ضريبة مقدراها سبعة تنكات على كل فرس يتم استيراده، فألغى السلطان محمد بن تغلق هذه الضرائب خاصة مع أهمية تجارة الجياد[٩١].

٨٦. العمرى، مسالك الأبصار، ص٥٨.
٨٧. العمرى، مسالك الأبصار، ص٥٥؛ القلقشندى، صبح الأعشى، ص٨٥.
٨٨. شمسى سراج عفيف، تاريخى فيروز شاهى، ص٣٤٤.
٨٩. انظر: Jackson, *The Delhi Sultanate*, p. 252
٩٠. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٣٩٦.
٩١. العمرى، مسالك الأبصار، ص٣٩؛ القلقشندى، صبح الأعشى، ص٧٨.

وظهر انتعاش التجارة الخارجية فى عدد وحجم السفن التى كانت تقصد الموانى الهندية؛ إذ يذكر ابن بطوطة[٩٢] أنه كان يوجد بميناء لكنوتى مائتى ألف مركب صغير. بجانب السفن الضخمة التى يوجد بها الطواحين والأفران والأسواق ولا يتعرف سكانها ببعضهم إلا بعد مدة لاتساعها. وبرغم ما قد يبدو من مبالغة فى وصف ابن بطوطة؛ فإننا نجد تأكيدا لذلك فيما ذكره ماركو بولو[٩٣] فى وصفه لسفن الهند، حين ذكر أن بعض السفن تحوى ستين مقصورة لسكن التجار تزيد تبعا لحجم السفينة، وأن بعض السفن تحتاج إلى طقم ملاحين عدده ٣٠٠ رجل.

وكان من أنواع المراكب المستخدمة فى الموانئ الهندية: الجاكر[٩٤]، العكيرى[٩٥] وكان كل أصحاب كل مركب يحرصون على حماية ما به من بضائع من خطر القراصنة وعبث اللصوص، لذاك كان يوجد فى كل مركب خمسين رامياً ومثلهم الحراس الحبشيين الذين اكتسبوا شهرة فى مجال التصدى للقراصنة الهنود، وكان تواجدهم بكل مركب علامة عل ابتعاد القراصنة عنه[٩٦].

وبجانب ذلك كانت هناك المراكب الصينية، والكبيرة منها تسمى جنوك والوسط تسمى الزو والصغيرة تسمى الكَكَم. ويخدم فى المركب الكبير ألف رجل ٦٠٠ من البحرية و٤٠٠ من المقاتلة. ويتبع المراكب الكبيرة ثلاثة النصفى والثلثى والربعى. ولا تصنع هذه السفن إلا بالصين؛ وقد ترك لنا ابن بطوطة وصفاً دقيقاً لصناعتها[٩٧].

وكان تواجد السفن الصينية فى الموانئ الهندية بكثرة أمراً طبيعياً؛ فقد كانت الصين من أهم الشركاء التجاريين للهند خلال العصور الوسطى، وكانت السفن الصينية تحمل إلى الهند الحرير الخام والأقمشة الحريرية والديباج وخشب الصندل وغير ذلك. كما كانت المواصلات بين الهند والصين فى أيدى تجار صينيين أوعلى الأقل تجرى بواسطة السفن الصينية، وكانت السفن تعود إلى الصين وهى محملة بالعقاقير الهندية (الأفاويه)، حيث كانت الصين أكبر مشترى لتلك العقاقير وكان الصينيون يدفعون أكبر ثمن فى شرائها، لذلك كان يصدر منها إلى الصين كميات كبيرة[٩٨].

وكان الساحل الغربى للهند المحط الرئيسى للسفن القادمة من الغرب، حيث كانت تستطيع الحصول على أغلب احتياجاتها دون التوجه إلى الساحل الشرقى للهند، إذ كان هذا الساحل بمثابة الواجهة التى تعرض فيها منتجات الداخل الغزيرة، خصوصا من التوابل[٩٩]. وكانت هناك جاذبية أوربية للساحل الغربى للهند نظرا للتنوع غير العادى للسلع التى تضفى على السوق الفاخرة روعة خاصة بجانب سياسة تشجيع التجارة التى انتهجها آل تغلق[١٠٠]. وظهر هذا الاهتمام من قبل مدن ايطاليا التجارية مثل چنوة والبندقية قبيل ظهور بنى تغلق بوقت قصير، فقد قامت أول بعثة تجارية چنوية قاصدة سواحل الهند عام ١٢٩١م، وقام بها ثلاثة أخوة من أسرة ڤيڤالدى Vivaldi، أحد أشهر الأسر التجارية فى چنوة، وتكونت البعثة من سفينتين حربيتين كبيرتين[١٠١]. وبغض النظر عن مصير هذه البعثة الذى اختلفت الآراء حوله، إلا أن

٩٢. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٤٠٣.
٩٣. ماركوبولو، رحلات ماركوبولو، ص١١-١٢.
٩٤. الجاكر: نوع من السفن يستخدم لنقل المسافرين ويزود عادة بالمقاتلة لحماية ركابه من القراصنة. وللمزيد عنه انظر: درويش النخيلى، السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص٢١.
٩٥. العكيرى: من المراكب الخفيفة التى يمكنها مغالبة الأمواج والسفر فى الظروف التى لا تلائم المراكب الكبرى الثقيلة، وكان يستخدم فى النقل التجارى الخفيف. انظر: حسن صالح شهاب، ص٤٧.
٩٦. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٥٥٢-٥٥٣.
٩٧. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٥٦٥.
٩٨. هايد، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى، ج٢، ص٣٩٦.
٩٩. شوقى عثمان، تجارة المحيط الهندى، ص١٩١.
١٠٠. انظر: Jackson, *The Delhi Sultanate*, p. 252
١٠١. هايد، تاريخ التجارة فى الشرق، ص٣٨٣.

الذى يهمنا هنا هو دلالة هذه البعثة على الاهتمام التجارى الغربى بسواحل الهند. ولم يقتصر الأمر على الچنويين فقط، فقد قام التجار البنادقة برحلات تجارية لمنطقة كولام على ساحل مليبار من أجل الحصول على الفلفل والزنجبيل وغيره من التوابل الهندية[١٠٢].

وكان أكثر اهتمام الغرب بساحل الهند الغربى خاصة منطقة كولام، وكانت هناك أسباب عديدة حملت التجار الغربيين على التردد على كولام وهو جاذبيتها كسوق به كمية هائلة وتنوع غير عادى من المنتجات خاصة الفلفل؛ الذى كان أكثر المنتجات طلباً، وأرتفع ثمنه ارتفاعا هائلاً فضلاً عن ندرته لشدة إقبال الأوربيين عليه، حتى صار مثل شائع فى العصور الوسطى بتشبيه الشئ النادر الغالى بالفلفل فيقولون «غال كالفلفل». ونتيجة هذه الندرة وارتفاع ثمنه أصبحت له قوة شرائية، وكان يستعمل فى بعض الأحيان بديلاً عن النقود[١٠٣]. وكان رؤساء الكنيسة الفرنسية يتقاضون العشور توابل خاصة الفلفل، كما كان العبيد يشترون حريتهم بأحمال من الفلفل، وكان يؤدى كإيجار للأراضى الزراعية فى انجلترا[١٠٤].

أما عن أهم أنواع البضائع التى جرى تبادلها فى التجارة الخارجية لسلطنة بنى تغلق مع جيرانها فى الهند وجيرانها بالخارج فلعل أهمها الخيل؛ فرغم كثرة الخيل بالهند إلا أنها كان يتم استيرادها بأعداد كبيرة لكثرة ما كان السلطان محمد بن تغلق يقوم بتوزيعه منها على حاشيته؛ فقد كان يفرق فى كل سنة عشرة آلاف فرس عربى من الخيل العراب، أما الخيل البراذين فكان يوزع منها بلا حساب[١٠٥]. كما كانت الخيول تسمن وتذبح وتقدم من ضمن مائدة السلطان[١٠٦]. ولعل السبب الأساسى لكثرة استيراد الخيول من خارج الهند أن البيئة الهندية عموماً لم تكن ملائمة لتربية الخيل إذ يذكر العمرى أن «الخيل إن طالت الإقامة بها بالهند انحلت وأكثرها مما لا يحمد فعله لذا يتم جلب الكثير من الخارج»[١٠٧]. لذلك كانت تجارة مربحة للغاية لكثرة العساكر والحاشية وعدم بقاء الخيول بها لفترات طويلة.

وكانت الخيول تجلب عادة من البحرين، وكان لأهل البلاد علامة فى الفرس يعرفونها فمتى رأوها فى فرس اشتروه بمبالغ عالية[١٠٨]. كما كانت تجلب أيضاً من بلاد الترك ومن اليمن والعراق[١٠٩]. والخيول التى كانت تأتى من بلاد الترك كانت تقدم فى قوافل كبيرة تقارب ستة آلاف فرس لكن الكثير منها كان يموت فى الطريق البرى الذى يخترق السند وصولا للهند، بجانب ما يسرق وما يدفعون من جمارك. لكن الأرباح العالية منها كانت تعوض ذلك، فالفرس الرخيص كان يباع بمائة تنكة، ويصل ثمن الجيد منها إلى ٥٠٠ تنكة، وهذه الجياد تخصص للحروب. أما الجياد التى تخصص للجرى والسبق فتجلب من اليمن وعمان وفارس ويباع الفرس بمبلغ يتراوح بين ١٠٠٠–٤٠٠٠ تنكة[١١٠].

بجانب ذلك كانت هناك بعض المنتجات الغذائية مثل البطيخ الأصفر الذى كان يتم استيراده من بخارى، والذى كان السلطان محمد بن تغلق يحبه حتى أن أحدهم حمل إليه حمل تلف غالبه ولم يبق غير اثنتان وعشرون بطيخة فأعطاه

١٠٢. هايد، تاريخ التجارة فى الشرق، ص٣٩٣.
١٠٣. هنرى بيرين، تاريخ أوربا فى العصور الوسطى، ص١٨.
١٠٤. شوقى عثمان، تجارة المحيط الهندى، ص٢١٥.
١٠٥. العمرى، مسالك الأبصار، ص٤٥.
١٠٦. العمرى، مسالك الأبصار، ص٤٧.
١٠٧. العمرى، مسالك الأبصار، ص٤٢.
١٠٨. العمرى، مسالك الأبصار، ص٤٦.
١٠٩. ابن بطوطة رحلة ابن بطوطة، ص٢٥٩.
١١٠. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٣٢٨.

٣٠٠٠ مثقال من الذهب[١١١]. والزبيب واللوز من خراسان[١١٢]. كما كان يتم استيراد الثياب والقماش؛ حيث يستورد ١٠٠ ألف كسوة من الإسكندرية. وثياب الكتان من بلاد الروس والإسكندرية[١١٣]. والقماش من الإسكندرية والصين والعراق[١١٤]. والأقبية الإسلامية مخصرة الأوساط من خوارزم[١١٥].

ولم يكن الميزان التجارى يميل كله لصالح واردات الهند، بل كانت هناك الكثير من الصادرات الهندية التى تصدر لدول الجوار؛ فقد كان التجار يشترون الحشائش والصموغ من الهند[١١٦]. ومن جاجنكر القماش والأفاويه والطيب، ومن بلاد المعبر الطيب والقماش[١١٧]. ومن تانة القنا والطباشير والثياب التانشية[١١٨]. ومن سندان القسط والقنا والخيزران[١١٩]. والفلفل من ساحل مليبار[١٢٠]. كما كان عسل جوز الهند يصدر للصين واليمن[١٢١]. والأرز يصدر من الهند لسواحل اليمن[١٢٢].

وكان للتجارة دور فى حياة المدن؛ فمدينة كنباية على سبيل المثال تميزت بأبنيتها ومساجدها المميزة لأن أكثر سكانها من التجار الغرباء، «وهم يتنافسون فيما بينهم فى بناء البيوت والمساجد على أشكال عجيبة مختلفة»[١٢٣].

النظام المالى

كان النظام النقدى الهندى خلال عصر بنى تغلق بالغ التعقيد، ويمكننا أن نرسمه فى شكل هرمى يضم فى قمته عملات ذات قيمة ضخمة، ثم عملات أخرى متوسطة القيمة، ثم يأتى فى قاعدته العملات ذات القيمة الأدنى. وقد ساعدنا على وضع هذا التصور ما ورد ببعض المصادر التاريخية من تفاصيل عن طبيعة هذا النظام النقدى.

فقد ذكر ابن بطوطة[١٢٤] أنه كانت بالهند ثلاث عملات رئيسية وهى الكرور واللُك والدينار، وأن (الكرور = ١٠٠ لُك) و(اللك = ١٠٠ ألف دينار). وأضاف القلقشندى[١٢٥] نقلاً عن شاهد عيان أنه كانت هناك أربع عملات أساسية أخرى للنظام النقدى فى الهند خلال عهد محمد بن تغلق وهى كالتالى:

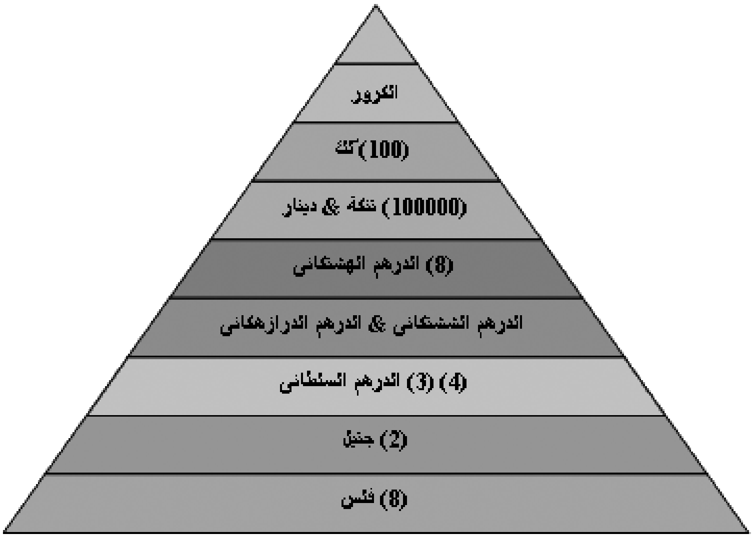
الدرهم الهشتكانى (ويساوى ٤ دراهم سلطانية)، الدرهم الششتكانى (ويساوى٣ دراهم سلطانية)، الدرهم الدرازدهكانى (ويساوى فى القيمة الدرهم الششتكانى)، والدرهم السلطانى (ويساوى ٢ جتيل). والجتيل (يساوى ٨ فلس).

وبرغم أن العمرى[١٢٦] ينقل عن نفس المصدر إلا أنه ذكر أن للهند ستة عملات وليس أربعة مع اختلاف بعض المسميات لديه فالدراهم الأربعة يذكرها بالشكل التالى (هستكانى، سشتكانى، دوازد هكانى، سلطانى) وهذا الاختلاف

١١١. العمرى، مسالك الأبصار، ص٥٣؛ القلقشندى، صبح الأعشى، ص٩٠.
١١٢. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٤٠٤.
١١٣. العمرى، مسالك الأبصار، ص٥٥؛ القلقشندى، صبح الأعشى، ص٩٣.
١١٤. العمرى، مسالك الأبصار، ص٤٥.
١١٥. العمرى، مسالك الأبصار، ص٦١.
١١٦. العمرى، مسالك الأبصار، ص٦٢.
١١٧. العمرى مسالك الأبصار، ص٣٧.
١١٨. القلقشندى، صبح الأعشى، ص٧٢.
١١٩. القلقشندى، صبح الأعشى، ص٧٣.
١٢٠. القلقشندى، صبح الأعشى، ص٧٣.
١٢١. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٢٦٥.
١٢٢. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٢٧١.
١٢٣. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٥٥٠.
١٢٤. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٥٤٩.
١٢٥. القلقشندى، صبح الأعشى، ص٨٤.
١٢٦. العمرى، مسالك الأبصار، ص٦٠.

فى أسماء الثلاث دراهم ربما كان مرجعه خطأ من النساخ لأن المسميات قريبة. أما الدرهمان الزائدان فهما (يكانى، شازرد كانى) والأول ذكره القلقشندى دون تحديد اسمه حين ذكر أن الدرهم السلطانى يساوى نصف درهم لكن لم يحدد له مسمى، أما الدرهم الثانى فلم يذكره القلقشندى. ويذكر العمرى أنه يساوى درهمين. والحقيقة أن ما ذكره القلقشندى أقرب للتنظيم مما ذكره العمرى الذى أخطأ أيضاً حين سمى الدرهم الهشتكانى مرة بالدرهم الفشتكانى وتارة هستكانى. وبجانب هذه العملات كانت توجد عملات ذهبية خاصة ضخمة القيمة مثل التنكة، وكانت نوعان فضية (بيضاء) تساوى ٨ دراهم هشتكانية & وذهبية (حمراء) تساوى ٣ مثاقيل، وكل ١٠٠ ألف تنكة تساوى لُك[١٢٧].

ومن العرض السابق يمكننا أن نحدد النظام النقدى الهندى فى شكل هرمى أعلاه (الكرور) يليه (اللُك) ثم يليه (التنكة والدينار بنفس القيمة)، يليهما أربعة عملات كبيرة رئيسية وهى الدراهم (الهشتكانى، الششتكانى، الدوازدهكانى، الشارززردكانى)، وكلها يمكن تقسيمها للدرهم السلطانى الذى كان العملة الوسيطة والأكثر تعاملا، وهو بدوره ينقسم لعملة أصغر منه وهى الجتيل أو الحثيل، ويأتى فى ذيل هرم العملات الفلس.



شكل ٢. شكل هرمى يوضح النظام النقدى الهندى خلال عصر بنى تغلق.

السياسة المالية والنظام النقدى

كان الإسراف اللا محدود للسلطان محمد بن تغلق حقيقة أحد أسباب متاعبه. وحتى مع الثروة العظيمة التى تمتعت بها مملكته، والتى عززتها الغنائم التى حصل عليها من المدن الهندية فى منطقة الدكن، التى أصبحت تحت سيطرته لم تستطع مواجهة الإنفاق الهائل على حاشيته[١٢٨]. وكانت مظاهر الإسراف واضحة فى نفقاته التى تجاوزت ٣٦ لك فى السنة[١٢٩]؛

١٢٧. القلقشندى، صبح الأعشى، ص٨٤-٨٥.
١٢٨. فرشته، تاريخ فرشته، ص١٢ وما بعدها.
١٢٩. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٤٤٧.

حيث كان يتصدق عند رؤية هلال كل شهر بلكين، بجانب راتب مستمر لحوالى أربعين ألف فقير (درهم + ٥ أرطال خبز قمح أو أرز لكل واحد منهم)، بجانب رواتب ألف فقيه يعلمون الناس القراءة والكتابة[١٣٠]. هذا بجانب اقتنائه لحوالى ٣ آلاف فيل مع نفقاتها الباهظة[١٣١].

بجانب ذلك كان السلطان شديد الكرم بالنسبة للغرباء ويفضلهم على رعاياه الهنود ويخصهم بالولايات والمراتب الرفيعة حتى أن معظم خواصه وحجابه ووزرائه وقضاته وأصهاره كانوا من الغرباء. وعندما كان الغرباء يقدمون إلى دلهى كان يمنحهم الكثير من القرى والأراضى المعفية من الضرائب والتى تجعلهم يعيشون فى رفاهية أثناء زيارتهم للهند وتجعلهم عند المغادرة أغنياء. وابن بطوطة نفسه عند زيارته للهند فى عهد السلطان محمد بن تغلق نعم بكرم السلطان وضيافته، وتم تعيينه كقاض لمدينة دلهى، وفى النهاية أرسل كسفير من قبل السلطان إلى الصين[١٣٢].

ولاشك أن العدد الضخم اللامعقول من زواره وحاشيته من الشعراء والموظفين وغيرهم أفقر الخزانة التى ازدهرت نسبيا خلال عهد والده القصير، وقضت الحملات الهائلة التى قام بها السلطان لاستكمال فتوحاته فى الهند على ما تبقى من أموال. بجانب ذلك فإن مشروعه لغزو فارس جعله يبقى على جيش ضخم ظل عاطلا، وحلمه الآخر بغزو الصين قاد فى النهاية إلى كارثة[١٣٣].

يضاف إلى ذلك سياستة الخاطئة حين فكر فى نقل العاصمة وبناء حاضرة جديدة تسمى دولت آباد وأمر أهل دلهى أن ينتقلوا إليها بالقوة، وعندما رفضوا ذلك قام بتهجيرهم قسرا وبعنف واشترى من أهلها جميع دورهم ومنازلهم حتى خربت دلهى فأمر أهالى البلاد أن يعمروها فخربت البلاد ولم تعمر دلهى لاتساعها[١٣٤]. وان كان هناك من يرى[١٣٥] أنه لم يطلب من أهل دلهى الهجرة للعاصمة الجديدة، وأنه لم يهاجر كل الناس للعاصمة الجديدة. هذا المشروع لم يكن كما رأى بعض الدارسين محاولة وحشية للانتقام من سكان دلهى. بل كان لهذا الاختيار سبب فكما يقول برانى كانت العاصمة تحتل مركز متوسط بين مقاطعات الدولة وموقع استراتيجى مما جعلها فى مأمن من غزوات المغول[١٣٦]. ولا شك أن قرار السلطان محمد بن تغلق بنقل العاصمة من دلهى إلى دولت آباد كان قرار غير مدروس وسبب معاناة للناس[١٣٧].

وأمام هذه الأعباء التى فرضت على الخزانة لم يكن هناك مناص من فرض ضرائب جديدة، خاصة على الأراضى الزراعية الخصبة. ولاشك أن هذه الضرائب الجديدة كانت حملاً زائدا على السكان لاسيما أن هامش العائد الزراعى كان صغيراً جداً[١٣٨]. وقد أشار برنى[١٣٩] إلى ذلك بقوله «كان المشروع الأول الذى قام به السلطان والذى أدى لخراب البلاد وإفقار الشعب هو محاولة الحصول على نسبة ٥ أو ١٠ بالمائة زيادة على الضرائب المحصلة من أراضى

١٣٠. العمرى، مسالك الأبصار، ص٥١.

١٣١. العمرى، مسالك الأبصار، ص٥٦.

١٣٢. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٣٩٥.

١٣٣. عن حملاته فى آسيا انظر:
Jackson, « The Mongols and the Delhi Sultanate », p. 57-118.

١٣٤. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٤٧٩-٤٨٠.

١٣٥. انظر:
Roy, « The Transfer of Capital », p. 449-464; Hussain, *Rise and Fall of Muhammad bin Tughluq*, p. 109-122.

١٣٦. انظر:
Majumdar, *An Advanced History of India*, p. 320.

١٣٧. انظر: Jackson, *The Delhi Sultanate*, p. 259

١٣٨. انظر: Lane Pool, *Mediaeval India*, p. 128-129

١٣٩. شمسى سراج عفيف، تاريخى فيروز شاهى، ص٤٧٣.

دواب Doab[١٤٠]، وقد كانت هذه الضرائب فوق طاقة الأهالى». ويرنى نفسه باعتباره مواطن هندى من سكان هذه المنطقة وشاهد عيان على هذه الوقائع عانى من تأثيرات هذه الضرائب. ونتيجة لفشل هذه الضريبة قام السلطان بمطاردة الهنود البؤساء مثل الحيوانات البرية وحاصرهم فى الغابات وأوقع بهم مذبحة. وفى مدن دواب وقنوج وغيرها تم قتل كل من قبض عليه من الرجال وقطعت رؤوسهم وعلقت على متاريس المدن. ولم يسلم من هذا المصير ملاك الأراضى ورؤساء القرى، ومما زاد الأمر سوء نقص الأمطار الموسمية ونقص مخزون الحصاد[١٤١].

وقد رأى أحد الدارسين المحدثين[١٤٢] أن سبب هذه الإجراءات هو خصوبة وغنى تلك الأراضى وما تدره من دخل، وكذلك لعقاب أهالى المنطقة من الثائرين ضد السلطان محمد بن تغلق. لكن هناك باحث آخر[١٤٣] رأى أن هذه الزيادات لم تكن مفرطة وأنها لم تكن تتجاوز ٥٠ بالمائة من التى كانت مفروضة فى عهد علاء الدين الخلجى[١٤٤]. ورأى أيضا أن مشروع السلطان بزيادة الضرائب المحصلة على سكان دواب لم يكن نيته إجراء عقابى ضد المقاومين من سكان دواب ولكن كان الغرض منه سد العجز فى الخزانة. بينما رأى باحث آخر[١٤٥] أن الغرض من هذه الضريبة كان زيادة مصادره العسكرية وتنظيم الإدارة على أساس فعال.

وكان للفكر الاقتصادى للسلطان محمد بن تغلق تأثير كبير على النظام النقدى فى الهند، فلكى يواجه الاستنزاف الهائل لخزانته والذى مؤداه ضخامة حاشيته وإسرافه الزائد، قام بخطوة جريئة وهى البعد عن العملات الذهبية والفضية وسك عملات نحاسية يتم التعامل بها. هو ربما أخذ الفكرة من الأوراق النقدية التى أصدرها قبلاى خان فى الصين، أو من الأوراق التى حاول خان المغول جاى خاتو فى فارس أن يخدع بها رعيته. لكن عملة تغلق المفروضة لم تكن تنوى أن تسلب الناس حقهم، وبدون قصد أدت إلى انتعاش الشعب، فقد كانت العملة النحاسية مقارنة بالورق فكرة جديدة. وكانت العملة النحاسية تساوى فى قيمتها تنكة الفضة المعاصرة، وبالطبع كانت مقبولة للاعتماد فى الخزانة العامة.

ومن اللافت للنظر ومما لاشك فيه تماما أن قيمة العملة الجديدة تعتمد على ضمان الخزانة لها، لذلك فإن السلطان نسى أنه من الضرورى تماما لنجاح ابتكاره أنه لا يصدر العملة سوى الدولة. وخلال تلك الفترة لم تكن هناك وسيلة للتمييز بين العملات الملكية والعملات المزيفة التى يسكها الأفراد. وتزييف الذهب كان أمر مكلف، لكن أى نقاش هندى ماهر يمكنه نقش وضرب العملات النحاسية التى تحمل قيمة التنكة بنفسه[١٤٦].

النتيجة كانت طبيعية فقد أدى سك العملة الجديدة كما يقول برنى[١٤٧] إلى تحول منزل كل هندى الى دار لسك العملة وقام الهنود فى الولايات المختلفة بسك اللكات والكارورات من العملات النحاسية. وبذلك تمكنوا من دفع الضرائب

١٤٠. الكلمة تتكون من مقطعين: دو بمعنى اثنان، وآب بمعنى نهر والكلمة بمعنى النهران، وهى منطقة تقع شرق دلهى بين نهرى جمنا والجنج، انظر: عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام فى الهند، ص١٢٩.

١٤١. انظر: Lane Pool, *Mediaeval India*, p. 129

١٤٢. انظر: Prasad, *History of Mediaeval India*, p. 273

١٤٣. انظر:
Majumdar, *An Advanced History of India*, p. 319.

١٤٤. عن الضرائب التى فرضها علاء الدين الخلجى انظر، برنى، تاريخى فيروزشاهى، ص٢٩١؛
Jackson, *The Delhi Sultanate*, p. 242.

١٤٥. انظر: Haig, *Five Questions*, p. 370

١٤٦. انظر: Lane Pool, *Mediaeval India*, p. 134-135

١٤٧. برنى، تاريخ فيروز شاهى، ص٤٨٥.

وشراء الخيول وكل الأنواع الطيبة الأخرى. وقد زاد غنى الراجات ورؤساء القرى وملاك الأراضى لكن الدولة كانت هى الخاسرة. وكان كل صانع للذهب يضرب العملات النحاسية فى متجره وامتلأت الخزينة بتلك العملات النحاسية. هذا الانخفاض فى القيمة جعلها بعد فترة لا تساوى أكثر من حصاة أو كسرة خزف. والعملة القديمة بعد المذبحة التى تعرضت لها ظهرت بحوالى أربع أو خمس أمثال قيمتها.

وعندما انقطعت التجارة فى كل جانب وأصبحت العملة النحاسية لا قيمة لها، اضطر السلطان إلى إلغائها وأعلن فى حنق شديد أن حائزى العملات النحاسية يجب عليهم إحضارها إلى الخزانة واستبدالها بالعملة القديمة. وقد قام آلاف الهنود الذين كانوا يمتلكون الآلاف من هذه العملة النحاسية وكانوا لا يهتمون بها ويضعونها فى جوانب بيوتهم بجانب أوعيتهم النحاسية، بإحضارها للخزينة واستبدلوها بالتنكات الذهبية والفضية[١٤٨].

بجانب ذلك قام السلطان محمد بن تغلق بتغييرات أخرى فى النظام النقدى حيث أصدر عملة ذهبية جديدة هى الدينار كانت تزن ٢٠٠ جرام. كما أصدر عملة فضية تزن ١٤٠ جرام بدلا من العملات الذهبية والفضية القديمة التى كانت تزن ١٧٥ جرام. وقد أدى هذا الإجراء إلى هبوط قيمة الذهب قياساً إلى الفضة. وكانت الخزانة الإمبراطورية قد امتلأت بأعداد كبيرة من الفضة نتيجة الحملات على الدكن[١٤٩]. وسرعان ما امتدت يد الإصلاح إلى نظام الضرائب نفسه حين ألغى السلطان الكثير من الضرائب وأمر «برفع المكوس وألا يؤخذ غير العشر من الناس»[١٥٠]. وبذلك أزاح عن كاهل الناس الكثير من الأعباء.

واستمر هذا الوضع بالنسبة للضرائب على الأرض فى عهد فيروز شاه حيث حدث تطور كبير فى النظام الخاص بها؛ فقد نظام الضرائب تم إعادة تنظيمه على أساس عادل، وتم إلغاء كل الضرائب غير القانونية التى فرضت فى العهود السابقة لفيروز، حيث تم إلغاء ٢٣ ضريبة ولم تعد هناك ضرائب سوى المذكورة فى القرآن وهى (الخراج، والزكاة، والجزية، والخمس)[١٥١]. وبجانب هذه الضرائب كانت هناك ضريبة خاصة بالرى وكانت تقدر بحوالى عشرة بالمائة من المحصول[١٥٢].

كما أصبح تقدير الضرائب على الأرض يتم بعد دراسة ظروف كل أرض وتم عمل استقصاء عن ملاك الأراضى الذين فقدوا أراضيهم، وطلب منهم أن يطالبوا بها بشكل قانونى. وقام السلطان بتعيين أحد كبار رجال بلاطه كمسؤول عن تقدير الضرائب، وقام هذا الرجل بجولة عبر المملكة ووضع تقرير خاص ضمنه اقتراحاته لتحسين نظام الضرائب. وكان من أهم ما جاء بتقريره ضرورة أن تلقى الدولة من على كاهل المزارعين الكثير من الأعباء، مثل المطالبات التى كانوا مضطرين لدفعها للحكام المحليين سنويا[١٥٣].

١٤٨. برنى، تاريخ فيروز شاهى، ص٤٨٦.
١٤٩. انظر:
Majumdar, *An Advanced History of India*, p. 322.
١٥٠. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٤٧٠.
١٥١. فيروز شاه، فتوحاتى فيروز شاهى، ص٣٧٧.
١٥٢. فيروز شاه، فتوحاتى فيروز شاهى، ص٣٦١.
١٥٣. شمسى سراج عفيف، تاريخى فيروز شاهى، ص٣٧٤.

وفيما يخص الضرائب على التجارة؛ كان السلطان محمد بن تغلق قد فرض ضرائب بقيمة الربع على كل الواردات ثم خفضها الى العشر أو الخمس. وبجانب ذلك كان يجبى ربع جتيل على كل تنكة من قيمة البضائع التى تباع. ثم قام السلطان فيروز شاه بإلغاء هذه الضرائب[١٥٤].

أما عن النظام النقدى فى عهد فيروز شاه فيذكر المؤرخون المعاصرون لفيروز أنه أصدر عدة عملات جديدة، لكن الحقيقة أن معظم هذه العملات ترجع لعهد محمد بن تغلق[١٥٥]. وفيما يخص إدارة العملة فظلت غير فعالة وحالات التزوير وسك العملة المزيفة لم يكن يتم كشفها بسهولة. لكن على الجانب الآخر فإن فيروز شاه لم يهمل اهتمامات رعيته ولكى يسهل التعامل بين الفقراء قام بإصدار عملة صغيرة هى نصف وربع جتيل، كانت خليط من الفضة والنحاس[١٥٦].

الأسعار

كانت الأسعار خلال عصر آل تغلق رخيصة بوجه عام، فقد ذكر العمرى[١٥٧] أن أحدهم حدثه أنه أكل مع ثلاث رفاق له فى مدينة دلهى لحم بقرى وخبز وسمن حتى شبعوا ولم يدفعوا سوى جتيل واحد. كما تحدث أيضاً عن رخص أسعار المنتجات الهندية وقلة أثمانها[١٥٨].

لكن على الجانب الآخر كانت هناك بعض الأزمات الاقتصادية التى حدثت خلال تلك الفترة، فخلال فترات الجفاف ارتفعت الأسعار حتى وصل سعر (مَن) القمح إلى ستة دنانير[١٥٩]. وكان ابن بطوطة شاهد عيان على هذه الحالة فقد روى أنه رأى ثلاث نسوة يقطعن قطعاً من جلد فرس نهر مات منذ أشهر ويأكلنه، وكانت الجلود تطبخ وتباع فى الأسواق، وكان الناس إذا ذبح البقر أخذوا دمائها فأكلوها. كما ذكر أن آخرين رووا له أنهم قصدوا منزلاً ليبيتوا فيه فوجدوا به رجلاً بيده رجلاً آدمية يشويها فى النار ويأكل منها[١٦٠].

ولم يقف السلطان ساكناً أمام هذه الظروف، بل حاول التخفيف عن رعيته فى هذه الأزمات فأمر أن يعطى لجميع أهل دلهى نفقة ستة أشهر، وحتى يضمن العدالة فى توزيع هذه المساعدات فإنه جعل ذلك يتم تحت أشراف الفقهاء والقضاة[١٦١].

١٥٤. شمسى سراج عفيف، تاريخى فيروز شاهى، ص٣٧٥.
١٥٥. انظر:
Majumdar, *An Advanced History of India*, p. 322.
١٥٦. شمسى سراج عفيف، تاريخى فيروز شاهى، ص٣٤٤–٣٤٥.
١٥٧. العمرى، مسالك الأبصار، ص٦٠.
١٥٨. العمرى، مسالك الأبصار، ص٤٢.
١٥٩. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٤٧٠.
١٦٠. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٥٠١.
١٦١. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٤٧٠.

قائمة بأسعار بعض المنتجات خلال عهد محمد بن تغلق[١٦٢]:

السلعة	السعر بالدرهم الهشتكانى
القمح	من[١٦٣] = درهم ونصف
الشعير	من = درهم
الأرز	من = درهمين إلا ربع
الحمص	من = نصف درهم
لحم البقر والماعز	٦ أستار[١٦٤] = ربع درهم
لحم الغنم	٤ أستار = ربع درهم
الأوز	طائر = درهمين
الدجاج	٤ طيور = درهم
السكر	٥ أستار = درهم
رأس الغنم الجيدة	٨ دراهم
البقرة الجيدة	٦١ درهم
سكر النبات	٤أستار = درهم

قائمة بأسعار بعض المنتجات فى عهد فيروزشاه[١٦٥]

السلعة	السعر بالجتيل
قمح	من = ٨ جتيل
شعير	من = ٤ جتيل
حنطة	من = ٤ جتيل
سكر	ستر = ٣ جتيل

صفوة القول أن الحياة الاقتصادية فى الهند خلال عصر بنى تغلق قد شهدت مراحل متباينة من الانتعاش والخمول وفقا لطبيعة السلطة المركزية وسياسة السلاطين التى أثرت بشكل كبير على أنماط الإنتاج وطبيعة الحياة الاقتصادية. ومع التنوع الكبير فى البيئة الهندية تنوعت الحياة الاقتصادية بكافة أشكالها: الزراعية، والصناعية، والتجارية. ويمكننا القول أن الحياة الاقتصادية خلال تلك الفترة تمثل نموذجاً فريداً فى الدينامية والتنوع فى التاريخ الاقتصادى للهند خلال عصورها الإسلامية.

١٦٢. العمرى، مسالك الأبصار، ص٦٠-٦١؛ القلقشندى، صبح الأعشى، ص٨٥-٨٦.

١٦٣. المن: يساوى ١١,٢٥ كجم تقريبا. انظر هينتس فالتر، المكاييل والموازين، ص٥٤.

١٦٤. الستر: يساوى تقريبا ٤٦,٤ جم. انظر هينتس فالتر، المكاييل والموازين، ص١٩.

١٦٥. شمسى سراج عفيف، تاريخى فيروز شاهى، ص٢٩٠.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية والمترجمة

إبراهيم على طرخان، النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٨.

آشتور، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق الأوسط فى العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادى عبله، دمشق، ١٩٨٥.

ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، بيروت، ١٩٦٤.

حسن صالح شهاب، المراكب العربية تاريخها وأنواعها، الكويت، ١٩٨٧.

حورانى، العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى، ترجمة السيد يعقوب بكر، القاهرة، ١٩٥٨.

درويش النخيلى، السفن الإسلامية على حروف المعجم، الإسكندرية، ١٩٧٤.

الساداتى، تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم، القاهرة، ١٩٥٧.

السيد أبى ظفر الندوى، أسطول كجرات، ثقافة الهند، مجلد ١٦، ١٩٦٥.

شوقى عبد القوى عثمان، تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية (٤١-٩٠٤هـ - ٦٦١-١٤٩٨م)، عالم المعرفة، العدد ١٥١، الكويت، ١٩٩٠.

عبد المنعم النمر، تاريخ الاسلام فى الهند، القاهرة، ١٩٥٩.

عصام عبد الرؤوف، بلاد الهند فى العصر الإسلامى، القاهرة، ١٩٧٠.

العمرى، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، ج٣، تحقيق محمد عبد القادر خريسات وآخرون، الإمارات، ٢٠٠١.

القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ج٥، القاهرة، ١٩٥٣.

ماركوبولو، رحلات ماركوبولو، ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة، ٢٠٠٤.

محمد قنديل البقلى، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة، ١٩٨٤.

محمود إسماعيل، سوسيولوچيا الفكر الإسلامى، ج٣، القاهرة، ١٩٩٢.

محمود عرفة، النظم السياسية والاجتماعية بالهند فى عهد بنى تغلق (٧٢١-٨١٦هـ / ١٣٢١-١٤١٤م)، حوليات كلية الآداب جامعة الكويت، الحولية ١٨، الكويت، ١٩٩٨.

هايد، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ج٢، ترجمة: أحمد رضا محمد رضا، القاهرة، ١٩٩١.

هنرى بيرين، تاريخ أوربا فى العصور الوسطى، الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ترجمة عطية القوصى، القاهرة، ١٩٩٦.

هينتس فالتر، المكاييل والموازين وما يعادلها فى النظام المترى، ترجمة كامل العسيلى، الأردن، ١٩٧٠.

المصادر الفارسية

برنى، تاريخى فيروز شاهى، كلكتا، ١٨٦٢.

شمسى سراج عفيف، تاريخى فيروز شاهى، كلكتا، ١٨٩٠.

فرشتة، تاريخ فرشتة، بومباى، ١٩٠٠.

فيروزشاه، فتوحاتى فيروز شاهى، عليكره، د.ت.

مجهول، سيرتى فيروز شاهى، دلهى، ١٩٣٧.

المراجع الأوربية

Antony, W., Howard, C., « The Tughluqs : Master Builders of the Delhi Sultanate », *Muqarnas* 1, 1983, p. 125-126.

Banerjee, A., « A Note on the Succession of Firuz Shah », *Indian Culture* 2, 1935-1936, p. 47-52.

Banerjee, A., *A History of Fairuz Shah Tughluq*, Delhi, 1967.

Banerji, S., « Ghiyasuddin Tughluq Shah as Seen in his Monuments and Coins », *Journal of the United Provinces Historical Society* 15, 1942, p. 62-66.

Basu, K., « The House of Tughlaq (From the Tarikh-i-Mubarakshahi.) », *Journal of Asiatic Society of Bengal* 26, 1930.

—, « Firuz Shah Tughluq as a Ruler », *Indian Historical Quarterly* 17, 1941, p. 1-33.

Chaghati, M., « Muhamed bin Tughluq Shah », *Poona Orientalist* 9, 1944, p. 58-61.

Habib, I., « The Peasant in Indian History », *Social Scientist* 11, 1983, p. 21-64.

Haig, W., « Five Questions in the History of the Tughluq Dynasty of Delhi », *Journal of Royal Asiatic Society*, 1922, p. 365-372.

Hussain, M., « The Social Life and Institutions with Special Reference to Hindus in the Days of Muhammad Bin Tughluq », *Proceeding 10th Indian History Congress*, 1947.

Imamuddin, S., « The Maritime Trade of Sind, Gujarat and Malbar Under the Sultans of Delhi », *Hamdard Islamicus* VII, 1984, p. 85-111.

Jackson, P., « The Mongols and the Delhi Sultanate in the Reign of Mohamed Tughluq », *Central Asiatic Journal* XIX, 1975, p. 118-157.

Jackson, P., *The Delhi Sultanate, A Political and Military History*, Cambridge, 1999.

Jauhri, R., « Ghyathu'd-din Tughluq – his Original Name and Descent », *in Kumwar Muhammad Ashraf Commemoration Volume*, Wiesbaden, 1966.

Jauhri, C.,« Learning and Literature During the Reign of Firoz Shah Tughluq (1351-1388)», *Islamic Culture*, XLI, 1967, p. 241-246.

Lal, S., *History of the Khaljis, A.D. 1290-1320*, Allahabad, 1950.

Lane Pool, S., *Mediaeval India Under Mohammedan Rule (712-1764 A.D.)*, London, 1952.

Mahdi, H., *The Rise and Fall of Muhamed ibn Tughluq*, London, 1938.

—, *Tughluq Dynasty*, Calcutta, 1963.

Majumdar, C., *The Delhi Sultanate*, Bombay, 1960.

—, *An Advanced History of India*, London, 1963.

Prasad, I., « The Rise and Growth of Khilji Imperialism », *Journal of Indian History* 1, 1921-1922, p. 147-148.

—, *History of Mediaeval India*, Alahabad, 1952.

Roy, N., « The Transfer of Capital from Delhi to Daulatabad », *Journal of Indian History* 20, 1941, p. 109-122.

Siddiqui, I., « Water Works and Irrigation System in India During Pre-Mughal Period », *Journal of The Economic and Social History of the Orient* 29, 1986, p. 52-77.

Syed, M., *History of the Delhi Sultanate*, New Delhi, 2005.



شكل ٣. خريطة لأهم مدن الهند خلال عصر آل تغلق.